٢ ـ ابن خُرداذبه

للأستاذ كوركيس عواد

يؤخذ مما ورد في بعض المراجع ـ أن ابن خرداذبه هذا ـ كان وزيراً ، فقد ذكر البَشّاري المقدسي[1] في عرض كلامه على « سدّ ذي القرنين » ما هذا نصه:

« قرأتُ في كتاب ابن خرداذبه[2] وغيره في قصة هذا السد على نسق واحد ، واللفظ والإسناد لابن خرداذبه ، لأنه كان وزير الخليفة ، وأقدر على ودائع علوم خزانة أمير المؤمنين . . . »

ويؤسفنا أنه لم يُشر إلى اسم ذلك الخليفة الذي وُزِرَ له ، والمرجّح عندنا أنه كان « المعتمد »

وقد بحثنا فيما بين أيدينا من تواريخ الدولة العباسية ، والمصنّفات الباحثة في أخبار الوزراء خاصة ؛ فلم نجد بين هاتيك المدوّنات مَن ذكر أن ابن خرداذبه كان وزيراً لخليفة من الخلفاء . والذي نذهب إليه أنه كان وزيراً بالإسم فقط ، وهذا أمر معروف عند متتبعي أحوال الإدارة في تلك الأزمنة التي كثرت فيها الوظائف ، واصطنعت فيها الألقاب !

ومهما يكن من أمر ، ففي العبارة التي نقلناها عن البشاري ، خير دليل على عِظَم منزلة ابن خرداذبه عند الخليفة ، وعلى اعتماد ذاك الخليفة عليه في أمور خزانته الحافلة

وقد ذكر ابن خرداذبه نفسه بنفسه ، في أوائل كتابه « المسالك والممالك » ، ولمح إلى مكانه من الخليفة بقوله[3] :

« هذا كتاب فيه صفة الأرض ، وبِنْية الخلق عليها ، وقبلة أهل كل بلد والممالك والمسالك إلى نواحي الأرض ، تأليف أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خُرداذبه ، مولى أمير المؤمنين »

والظاهر أن « أمير المؤمنين » هذا ، قد كان المعتمد أيضاً ، على ما عُرف من صلة وثيقة بينه وبين هذا الخليفة

(١) آحسن التقاسيم (ص ٣٦٢)

(٢) تجد الخبر بكامله في كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة (ص ١٦٢ — ١٧٠)

(٣) المسالك والممالك (ص ٤)

١٨ ـ ٢٣

ولعُبَيد الله ابن خرداذبه أخبار تفرقت في شعر بعض معاصريه فيها ما يسير إلى أصله « الفارسي » ، وما يشيد بذكر عائلته العريقة في المجد ، وما يدل على سمو منزلته في الدولة

روى أبو بكر الصولي في كلامه على الشاعر أبي الطيب محمد ابن عبد الله بن أحمد بن يوسف أنه قال : « وكتبت إلى ابن خرداذبه ، وقد دام المطر « بُسِرَّ مَنْ رَأَى » وتأخرتُ عنه :

لعمري لئن سرّ الحيا في مواطن ... لقد ساءني أن عاقني عن لقائكا

وقد كنتُ مشغوفاً بذاك أريده ... فحالَ قضاء الله من دون ذلكا

فَصِفْ لي قَدَحْتَ النفس أمراً يسرّني ... وأحمد فيه الله من حسن حالكا

وحال أخينا أحسنَ الله صنعه ... وحال فتاك متعماً في كتابكا[1] »

فهذا الشاعر ، على ما يبدو من الأبيات المتقدمة ، قد كان صديقاً حميماً لابن خرداذبة . ونظيره في هذه الصداقة كان البحتري الشاعر المشهور المتوفى سنة ٢٨٤ هـ ؛ فقد وقفنا في ديوان شعره على قطع له فيه . من ذلك ما قاله في عبدون بن مخلد[2] وقد كتب بها إلى ابن خرداذبه[3] :

أبلغْ لديك عُبيد الله مألكة[4] ... وما بدار عُبيدِ الله من بُعدِ

أضحتْ بقطربّل[5] والدَّيْرُ[6] حَلَّتُه ... وما يُجاورُ بيتَ النارِ ذا العُمُدِ

لم تدر ما بي وما قد كان بَعدَكَ من ... نفاستي لك في عبدون أو حسدي

أغرُّ ، أحسَبُ نُعماهُ الجليلةَ من ... ذخائري لصروفِ الدهرِ أو عُدَدي

إذا مضى اليوم لا نلقاه فيه مضى ... سرورنا وترقّبنا[7] مجيء غدِ

(١) كتاب الأوراق [قسم أخبار الشعراء] للصولي (ص ٢٤٩)

(٢) جاء ذكره في حوادث سنة ٢٧٢ من تاريخ الطبري (السلسلة الثالثة ، ص ٢١٠٩)

(٣) ديوان البحتري (١ : ٢١٠ طبع الجوائب في الآستانة سنة ١٣٠٠ هـ ، أو ص ٣٢٥ — ٣٢٦ طبع بيروت سنة ١٩٠٠)

(٤) المألكة : الرسالة .

(٥) قطربل من مواطن اللهو والأنس ، بين بغداد وسامراء ، وهي مشهورة بخمرها . ضبطها ياقوت بالضم ثم السكون ثم فتح الراء وباء موحدة مشددة مضمومة ولام ، وقال إنه روى في ضبطها : بفتح أوله وطائه وأما الباء فمشددة مضمومة في الروايتين

(٦) في طبعة بيروت : والدار والوجه ما في أعلاه

(٧) في طبعة الآستانة : وترقبنا ، وهو تحريف

إن فات فى السبت أن تزدار[1] سيدنا
فلا تَفُتْنا لشىء زَوْرَةَ الأحـــد

وفى القطعة التالية، يوجه البحترى الكلام إلى ابن خرداذبه بعد أن خلع عليهما عبدون بن مخلد. وفى هذه إشارة صريحة إلى ما كان من صلة بين عبدون وابن خرداذبه. قال البحترى[2]:

يا أبا القاسم استَجِدَّ لنا عبدو نُ حالاً تمامُها فى ضمـــانِهْ
جمعتنا مَوَدَّة واجتمعنـــا بعدُ فى بِرِّه وفى إحسانِهْ
قد لبسْنا ثيابَهُ وتَسايَرْ نا بتقريظه على خُلْعانه[3]

وأجزل فائدة من ذلك، ما قاله البحترى فى مدح عبيد الله ابن خرداذبه، وذكر صداقته، وتهنئته بخروجه من علة كان فيها ودونك ذلك:[4]

إن تَرُجْ طولَ عبيدِ الله لا تخبِ
أو تَرُمْ فى غَرَضٍ من سيبه[5] تُصب
لم تلقَ مثلَ مَساعيه التى اتصلتْ
وما تَمَيَّلَ[6] منها عن أبٍ فأبِ
رأىٌ صليبٌ على الأيام يُتْبِعُهُ
ظَرْفٌ متى يَعترض فى عيشِنا يطِبِ
ذاكَ أَخٌ أفتديهِ إنْ يُحِسَّ أذًى
بالنفسِ مِمَّا توقّاهُ وبالنَّشبِ[7]
[إذ[8] كان[9] من فارسٍ فى بيتِ سؤددها
وكنتَ من طيِّهِ[10] فى البيتِ والحسبِ[11]

فلم يَضِرْنا[1] تَنائى المنصبين وقد
رُحنا نَسِيبَيْنِ فى خُلْقٍ[2] وفى أدَبِ
إذا تشاكلتِ الأخلاقُ واقتربتْ[3]
دنتْ مسافةُ بين العُجمِ والعربِ[4]]
إسلم ولا زلتَ فى سترٍ من النُّوَبِ
وعِشْ حميداً على الأيام والحُقُبِ
ولْيهْنِكَ البُرْءُ مِمَّا كنتَ تألُهُ
والأجرُ فى عقبِ ذاك الشكرِ والوَصبِ
أوحشتَ، مذْ غبتَ قوماً كنتَ أُنسَهمُ
إذا شَهِدْتَهمُ فاشهَدْ ولا تغِبِ
إلاّ تكنْ مَلِكاً تُثْنَى تحيَّتُهُ
فإنَّك ابنُ مُلوكٍ سادةٍ نُجُبِ
وإن قصدْتَ ابتغاء البُرْءِ من سَقَمٍ
فقد أرقتَ دَماً يَشْفى من الكَلَبِ

وغنىٌّ عن القول أن ابن خرداذبه، وهو الفارسىّ الأصل، كان يعرف اللغة الفارسية، ولا ندرى ما إذا كانت له كتابات أو تآليف بهذه اللغة. وإنما وجدناه فى كتابه المسالك والممالك يستشهد فى موطنين[5] بشعر فارسى

أما سنة وفاته، فلسنا على علم ثابت منها. وقد وجدنا الحاج خليفة[6] يقول إن ابن خرداذبه توفى فى حدود سنة ٣٠٠[7] للهجرة، ولعل هذا صحيح، غير أننا لم نقف فى كتاب قديم على ما يدعم هذا القول

وقد قلنا إن ابن خرداذبة نادم المعتمد وخُصَّ به. ومعروفٌ أن المعتمد ولد سنة ٢٢٩، وبويع له بالخلافة سنة ٢٥٦، وتوفى سنة ٢٧٩ هـ، فيكون ابن خرداذبة قد بلغ أوج عزه خلال هذه الفترة المنحصرة بين ٢٥٦ و ٢٧٩ للهجرة.

(١) تزدار: تزور
(٢) ديوان البحترى (١ : ٢١١ طبع الجوائب، أو ص ٣٢٦ طبع بيروت)
(٣) الخلعان: ما يحمل عليه من الثياب فى الهبة خاصة
(٤) ديوان البحترى (٢ : ١٠ — ٢١ الجوائب، ص ٤١٥ — ٤١٦ بيروت)
(٥) السيب: العطاء أو المال. الجمع: سيوب
(٦) يقال: تميل أباه، بمعنى أشبهه
(٧) النشب: المال
(٨) الأبيات الثلاثة بين الزمين رواها الحصرى القيروانى فى زهر الآداب (الطبعة الثانية ٣ : ١٨٢ للدكتور زكى مبارك)
(٩) فى زهر الآداب: إن كنت
(١٠) فى زهر الآداب من عندى
(١١) فى زهر الآداب: والنسب

(١) فى زهر الآداب: فلن يضر
(٢) فى زهر الآداب: فى علم
(٣) فى زهر الآداب: إذا تقاربت الآداب والشيم
(٤) فى زهر الآداب: بين العرب والعجم، وهو مخالف للقافية
(٥) المسالك والممالك (ص ٢٦ و ١١٨)
(٦) كشف الظنون (٢ : ١٠١٠ طبعة فلوجل)
(٧) فى دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدى (٣ : ٦٩٣) أنه توفى فى حدود سنة ٣٠٠ هـ، وهو خطأ مطبعى ظاهر

وذكرنا ما كان من صداقة بينه وبين البحتري المتوفى سنة ٢٨٤ هـ . إلا أن المراجع التي بأيدينا لا تعيننا على معرفة ما إذا كان ابن خرداذبة قد توفي قبل البحتري أو بعده .

وما قلناه في عُبَيد الله ، نقوله في سائر بني خرداذبة ، فإننا نجهل سني وفياتهم ، فضلاً عن أن علمنا بسائر أخبارهم وشؤونهم ما زال مقتضباً يسيراً . وحسبك أن تعلم أن الترجمة الوحيدة لعبيد الله ابن خرداذبة ، هي التي كتبها ابن النديم في فهرسته ، وهي أقل من خمسة أسطر !

٥ — مؤلفات ابن خرداذبة

سبقت الإشارة إلى بعض تصانيف ابن خرداذبة ، التي خلدت اسمه على كر العصور . وهذه المؤلفات قد تزيد على العشرة ، ذكر ابن النديم[1] ثمانية منها ، ضاع أغلبها فيما ضاع من تراث الأقدمين . وإليك الآن أسماءها وما نعلمه من أمرها :

١ — كتاب أدب السماع . . .

٢ — كتاب جمهرة أنساب الفرس والنوافل .

٣ — كتاب المسالك والممالك : ضمنه إحصاء جباية المملكة العباسية في أواسط المائة الثالثة للهجرة[2] . وهو من خيرة المراجع القديمة في معرفة الطرق والمسالك ، وتعيين المسافة بالفراسخ أو بالأميال بين مكان ومكان ، على ما كان معروفاً عند القوم في ذلك الزمان . ولا مراء ، إن ابن خرداذبة كان الرجل الثقة في مثل هذه البيانات ، لأنه تولى أعمال البريد . ومن المعلوم أنه « لا غنى بصاحب هذا الديوان أن يكون معه منه ما لا يحتاج في الرجوع فيه إلى غيره ، وما إن سأله عنه الخليفة وقت الحاجة إلى شخوصه وإنفاذ جيش يهمه أمره ، وغير ذلك مما تدعو الضرورة إلى علم الطرق بسببه ، وُجد عتيداً عنده ومضبوطاً قِبَله ، ولم يحتج إلى تكلف عمله والمسئلة عنه[3] »

ويبدو لنا واضحاً أن ابن خرداذبة لم يؤلف هذا الكتاب إلا بطلب من شخص كبير لم يصرح باسمه ولعله أحد الأمراء . قال في أول كتابه ، وفيه ما يوضح غرضه من هذا السفر ما إليك نصه بالحرف الواحد[4] :

« أطال الله تعالى بقاءك يا ابن السادة الأخيار والأئمة الأبرار منار الدين وخيرة الله من الخلق أجمعين ، وأدام الله لك السعادة ، وكثّر لك الزيادة من جميع الخيرات ، ووفقك لسبيل الصالحات ، وجعلك ممن ارتضى أفعاله وزين أحواله . فهمتُ الذي سألتَ ، أفهمك الله جميع الخيرات وأسعدك إلى الممات ، وأفلح في الدارين سهمك ، ووفر فيهما قسمك ، من رسم إيضاح مسالك الأرض وممالكها ، وصفتها وبعدها وقربها وعامرها وغامرها ، والمسير بين ذلك منها من مفاوزها وأقاصيها ورسوم طرقها وطسوقها[1] على ما رسمه المتقدمون منها . فوجدت « بطلميوس » قد أبان الحدود وأوضح الحجة في صفتها بلغة أعجمية ، فنقلتها عن لغته باللغة الصحيحة لتقف عليها ، وقد رسمت ، رُسمك فوز الحق في جميع مأمولك ومطالبك ، ما رجوت أن يكون محيطاً بمطلوبك وآتياً على إرادتك كالشاهد لما نأى والخبر بما قرب ، وصنعته كتاباً افتتحته بالحمد لله ذي العزة المنيعة والنعمة السابغة ، الذي أنشأ الخلق على ما أراد ، وبين سبيل الحق للعباد ، لم تشركه في خلقه الآراء المتوهمة ولا ظنون الرؤيات ، تعالى الله عما يشركون ، وصلى الله على محمد نبيه ، وعلى الأخيار من عترته وسلم كثيراً » اهـ

والمعروف في وقتنا أن لهذا الكتاب ثلاث نسخ خطية ، اثنتين منهما في خزانة أكسفرد وفيهما خروم

وكان المستشرق باربيه دي مينار Barbier de Meynard أول من نشر هذا الكتاب ونقله إلى الفرنسية (المجلة الآسيوية الفرنسية ، السلسلة ٦ ، المجلد ٥ ، سنة ١٨٦٥ ، ص ٢٢٧ وما بعدها ثم عُني بتجديد طبعه العلامة دي غويه de goeje فنشره مترجماً إلى الفرنسية أيضاً (الخزانة الجغرافية العربية ، ج ٦ ، ليدن ١٨٨٩ في ١٨٣ صفحة للمتن ، و١٤٤ للترجمة . ويليه في المجلد نفسه نبذ من « كتاب الخراج وصنعة الكتابة » لقدامة بن جعفر الكاتب البغدادي ، المتوفى سنة ٣١٠ أو ٣٢٠ هـ ، صفحة ١٨١ — ٢٦٦) وجديرٌ بالعناية تلك التحقيقات الثمينة والتعليقات الدقيقة والفهارس المتقنة التي تحلى بها هذا الكتاب . وقد اشتملت المقدمة التي كتبها الناشر دي غويه بالفرنسية على فوائد جزيلة ، جاءت في ٢٣ صفحة . وصفوة القول أن هذه الطبعة نفيسة ، فيها

(١) الفهرست (فلوجل ١٤٩ ، ٢١٣ مصر)

(٢) نشر جرجي زيدان ، خلاصة ذلك الاحصاء في تاريخ التمدن الاسلامي (٢ : ٥٩ — ٦١)

(٣) كتاب الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر (ص ١٨٥)

(٤) كتاب المسالك والممالك (ص ٣)

(١) الطسوق ، واحدها الطسق (بالفتح فالسكون) ، ما يوضع من الخراج المقرر على الجريان (جمع الجريب ، وهو على ما في التاج ١ : ١٧٩ ثلاثة آلاف وستمائة ذراع) . أو هو شبه ضريبة معلومة ، والكلمة من الدخيل (أنظر تاج العروس ٦ : ٤٢٣)